المورد

مجلة تراثية نصف سنوية محكمة

- المجلد العشرون - العدد الاول - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

WWW.ATTAWEEL.COM

في الشعرية العربية

اعجاز القرآن للباقلاني

قراءة جديدة

بقلم
طراد الكبيسي

مقدمة

مع أنّ العوامل الرئيسة لتأليف الباقلاني ، كتابه هذا ، شأنه شأن جميع من ألفوا في إعجاز القرآن ، هي بيان وجوه الاعجاز في القرآن ، ولماذا هو مُعجز ، ونفي الشعر عن القرآن ، إلّا أن السؤال الذي طرحه اكثر من باحث : لماذا الحاجة الى الدفاع عن القرآن في كونه ليس شعراً ، لو لم تكن هناك صورة للشعر في الذهن العربي ، بالمعنى الاقدم للشعر ، جعلتهم يقاربون بين الشعر والقرآن ؟ لاسيما وأن الآية : (وما علّمناه الشعر » تستلزم بالضرورة وجود نوع من الصنعة التي تميّز الاسلوب الشعري ، وينبغي تعلّمها »[1]

ثمّ أن الباقلاني من خلال نفيه لاية مقاربة بين القرآن والشعر ، يُقدّم مفهومه للشعر .

أساليب الكلام عند العرب

في معرض عرضه النظم القرآني لاساليب الكلام عند العرب ، يُميّز الباقلاني خمسة أساليب للكلام البديع الفني عند العرب ، هي :

١ ـ الشعر على اختلاف أنواعه : «نظمٌ مُقفّىً موزون له روِيّ»

٢ ـ الكلام الموزون غير المقفّى .

٣ ـ الكلام المعتدل المسجّع غير الموزون .

٤ ـ الكلام المعتدل الموزون غير المسجّع .

٥ ـ الكلام المرسل : غير موزون وغيرمقفّى .(ص٣٥و١٦٢) .

والقرآن خارج عن هذه الوجوه/ الاساليب/ وبَاين لهذه الطرق ، فهو ليس من قبيل الشعر ، ولا من باب السجع ، ولا الكلام الموزون غير المقفّى . (ص٣٥ و ٥٠) .

إذنْ ، من أين جاءت دعوى (كُفّار قريش) أنّ القرآن ، شعر؟ .

ماهو الشعر ؟

في رأي الباقلاني ـ

١ ـ الشعر صنعة تتميّزه عن غيره من الكلام وفي القرآن أيضاً ، صنعة تميّزه عن سائر نظم الكلام . ومن هنا جاءت المقاربة بين الصنعتين ، رغم تباينهما في النظم والاسلوب . قال : «إنّ قولهم ـ أي الكفار ـ إنه شاعر ، وإن هذا شعر ـ لابد أن يكون محمولاً على انهم نسبوه الى أنه يُشعرُ بمالا يُشعرُ به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام ، لا أنهم نسبوه في القرآن الى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الاعاريض المحصورة المألوفة »(ص٧٦) .

٢ ـ والشعر فطنة ، والشاعر يفطن لما لايفطن له غيره . وفي القرآن ، أيضاً ، فطنة لما لا يفطن له غيره : (الاخبار عن الغيوب ، مع الصدق والاصابة ، والاخبار عن قصص الاولين وسير المتقدمين ممن لم يقف أحد على أخبارهم ..الخ) (ص٤٨) وهكذا «إذا قدر الشاعر على صنعة الشعر كان على ما دونه أقدر ..) (ص٥١) .

٣ ـ لايكون الكلام شعراً إلّا متى قصدَ القاصدُ إليه . (وإنما يُعدُّ شعراً ما اذا قصده صاحبه ، تأتّى له ولم يمتنع عليه) (لانه لو صحّ أن يُسمّى كل مَنْ إعترض في كلامه ألفاظ تتّزنُ بوزن الشعر ، أو تنتظم إنتظام بعض الاعاريض ، كان الناس كلّهم شعراء ، لأنّ كل متكلّم لا ينفكّ من أن يعترض في جملة كلام كثير بقوله ، ماقد يتّزنُ بوزن الشعر وينتظمُ إنتظامه) .

ومن هنا قالوا : (ان البيت الواحد وما كان على وزنه لايكون شعراً . وأقلّ الشعر بيتان فصاعداً ..) (وقد قيل : إن أقلّ مايكون منه شعراً ، أربعة أبيات ، بعد أن تتفق قوافيها . ولم يتفق ذلك في القرآن بحال ، فأمّا دون أربعة أبيات منه أو ما يجري مجراه في قلّة الكلمات ، فليس بشعر .)

وعلى هذا ، فان ماجاء في القرآن ، موزوناً ، لايُعدّ شعراً ، نحو : (والعاديات ضَبْحاً ، فالموريات قَدْحاً .) لاسباب عدّة :

الاول : أنّ الوزن جاء إتفاقاً غير مقصودٍ إليه .

الثاني : أنّ من شروط الكلام الموزون أن تتساوى أجزاؤه في الطول والقصر ، والسواكن والحركات .. وليس القرآن من هذا القبيل .

والثالث : أن يكون مُتّسق التقفية ، فما لم يكن كذلك ليس بشعر .

والرابع : أن يكون الوزن مُقوّماً أساسياً في الشعر : (وأما الكلام الموزون فان فائدته تتمّ بوزنه) (ص٥٣ـ٥٦) .

إذنْ ، كيف يمكن تفسير ما جاء في القرآن من وجوه البلاغة والنظم والتقفية ؟

يجيب الباقلاني : (إنّ صورة الشعر قد تتّفق في القرآن ، وانْ لم يكن له حُكم الشعر) (ص ٢٨٥) مثلما قد تتّفق صورة الكلام على مثال السجع ، وان لم يكنْ سجعاً ، لان مايكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لانّ السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدّي السجع . وليس كذلك ما إتّفق مما هو في تقدير السجع من القرآن ، لانّ اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى .) (ص ٥٨) .

(١) دراسات المستشرقين حول الشعر الجاهلي . ترجمة د. عبدالرحمن بدوي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٩/ص ٨٩ و ١٣٤ .

فضلاً عن أن للسجع : (منهجٌ مُرتَّب محفوظ ، وطريق مضبوط ، متى أخلّ به المتكلم ـ كانَ تفاوتت أوزانه ، واختلفت طُرقه ـ وقع الخلل في كلامه ، ونُسب الى الخروج عن الفصاحة .) (ص ٥٩)

كيف إتّفق الشعرُ للعرب :

إختلفوا في ذلك : (فقد قيل : إنه إتّفق في الاصل غير مقصود إليه . على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام . ثم لما أستحسنوه واستطابوه ورأوا أنه قد تألّفه الاسماع وتقبلّه النفوس ، تتبّعوه من بَعْدُ وتمثلوه . وحكى غُلام ثعلب عن ثعلب : أنّ العرب تعلّم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول ، يُوضع على بعض أوزان الشعر كانه على وزن : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) ويُسمّون ذلك الوضع «المتر» وإشتقاقه من المَتْر ، وهو الجذب أو القطع . يقال : مَتَرْتُ الحبل ، أي قطعته أوجذبته .) (ص٦٣)

هذا أحتمال . وإحتمال آخر أن الشعر اتّفق للعرب على سبيل المواضعة : (أنهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم) أو أنه أتاهم على سبيل التوفيق : (وان الله تعالى أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى ، وفطنوا لحسنه فتتبّعوه من بَعْدُ ، وبنوا عليه وطلبوه ، ورتّبوا فيه المحاسن التي يقع الأطرابُ بوزنها ، وتهشّ النفوس إليها ، وجَمَع دواعيهم وخواطرهم على إستحسان وجوهٍ من ترتيبها ، وإختيار طُرق من تنزيلها ، وعرّفهم محاسن الكلام ، ودلّهم على طريقةٍ عجيبة ـ) (ص ٦٣) .

مهما يكن من أمر نشأة الشعر عند العرب . فانّ ما يثبغي التنبّه له هو التناقض في كلام الباقلاني حول ما يُعَدُّ شعراً . فهو من جهة يؤكد مسألة القَصْد : (وإنّما يُعَدُّ شعراً ما اذا قصده صاحبه ..) ومن جهة أخرى ، يرى أن الشعر إتّفق في الاصل غير مقصود إليه : مصادفة . أو تواضعاً ، أو توقيفاً . فالامر سيّان .

وما كان ليقع في هذا التناقض ، لولا مغالاته في نَفْي أيّة سمة أو شُبْهةٍ للقرآن بالشعر أو (أساليب الكلام البديع المنظوم) عند العرب . والتشديد على البينونة القاطعة بين النظم في الاسلوب القرآني . والنظم في تلك الاساليب.

ولعلّه كان في وسع الباقلاني أن يُجيب بما أجاب به الوليد بن المغيرة ، الذين قالوا : نقول بأن القرآنَ ، شعرٌ ، والرسول شاعر ؛ حيث قال : «ماهو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كُلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .»[٢]

خصائص الشعرية عند الباقلاني :

على أية حال .. ومادام غرضنا هنا ، هو تبيّن مفهوم الباقلاني للشعريّة . فما هي خصائصها ؟

أولاً يؤكد الباقلاني على مفهوم «القَصْد» في تجنيس الكلام الذي يقال شعراً . وبذلك يُخرج من مفهوم الشعر ، كلّ ما جاء موزوناً ، أو موزوناً مُقفّى في القرآن وعلى لسان الرسول (ص) أو في كلام العوام : (الكلام المنثور)[٣]

ثانياً ويؤكد الباقلاني على أنّ الوزن والقافية ووحدة الروي ، مقوّمات أساسية في كون الشعر ، شعراً . فالشعر : «نظم مُقفّى «موزون له روي»»

ثالثاً وهذا يعني ، وبناء على ماتقدم ، أنّ في الشعر ، صنعةً وتَفَضُّلاً . تُميّزهُ عن غيره من أساليب الكلام الفنّي الاخرى عند العرب . ولهذا يكون الشعر «أصعب تناولاً» . وربّما إتّفق فيه التعمّل والتعلّم والتصنّع مع إتّفاقٍ من الطبع وقذف من النفس على اللسان» (ص٦٢) .

وعلى هذا فانّ ما يجري في الشعر من أصناف البديع كالاستعارة والتشبيه والمماثلة والمطابقة والمجانسة والمقابلة والموازنة والاشارة والتكرار ..الخ (ص ٦٩ ـ ١٠٧) «يمكن إستدراكه بالتعلّم والتدرّب به والتصنّع له ، كقول الشعر ، وزخرف الخطب ، وصناعة الرسالة» أي «أنّ هذا الفنّ ـ البديع ـ ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن الطرف» في رأي الباقلاني (ص ١١١) . وربّما قصد أنه مألوف معروف في أساليب الكلام عند العرب ، ولكنه ـ أي البديع بانواعه ـ في الوقت الذي لايُشكّل فيه لوحده دليلاً على إعجاز القرآن ، فانه في الشعر «باب من أنواع البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة» (ص ١١٢) وفيه تتفاوت أقدار الشعراء في «الابانة عن الاغراض القائمة في النفوس» (ص ١١٩) كما تتفاوت قدرات القُرّاء والنقاد في تمييز الشعر الجيد من الرديء .» وقد فسّل مَنْ يُميّز أصناف الكلام .» (ص ١١٩-١٢٠) .

رابعاً ومع أن مبدأ التفاوت ، مبدأ معروف بين نصوص الشعراء ، وفي نصوص الشاعر الواحد وفي النص الواحد . إلّا أن الباقلاني نظر الى مبدأ التفاوت ، من الوجهة السلبيّة وحسب ، مُعلّلاً هذا بالطول الذي يستوعبه النظم . فقد يتفق للشاعر أن يُجيد في (قطعة عجيبة شاردة ، تُباين جميع ديوانه في البلاغة ، ويقع في ديوانه بيت واحدٌ يخالف مألوف طبعه) وسبب ذلك في الجملة ، (هو التقدّم في الصنعة) (ص ٢٨٦) .

فهو ، مثلاً ، في نقده لقصيدة إمرىء القيس : (قفا نبك ..) يُركّزُ على «تفاوت أنواع الخطاب وتباعد مواقع أنواع البلاغة» دون أن ينكر أنه «أبدع في طرق الشعر أموراً أتبع فيها .» (ص ١٥٨) .

وهكذا يفعل مع البحتري في قصيدته التي مطلعها : (أهلاً بذلكم الخيالِ المُقْبل) مُتتبعاً (الخلل) والتفاوت (مع الديباجة الحسنة ، والرونق المليح) (ص ٢٢٠) غافلاً عن حقيقة (أن بعض التفاوت في طبيعة النظم نفسه مما يقتضيه إختلاف الاحوال النفسية بين موقف وموقف)[٤] وهو القائل (أن من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين ، والقول الرصين ، ومنهم مَنْ يختار الكلام الذي يروق ماؤه ، وتَرُوع بهجته ورَوْاؤه ، ويسلس ماخذهُ ، وينسلم وجهه ومَنْفَذه ويكون قريب المُتناول ، غير عويص اللفظ ، ولا غامض

(٢) د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٨ : ٩/١٧٤ .

(٣) يلاحظ مقالنا : (مفهوم القصد ودوره في تجنيس الشعر وتثنيته) مجلة (الاقلام) ٨/١٩٩٠

(٤) د . إحسان عباس : تاريخ النقد الادبي عند العرب ـ بيروت ١٩٧١/ص ٣٥٢

المعنى . كما قد يختار قوم ما يُمحض معناه ، ويلزُبُ لفظه ، ولايختار ما سَهُلَ على اللسان ، وسبق الى البيان .) (ص ١١٣-١١٤)

خاصة وأنّ الباقلاني يرى «أنّ الكلام موضوعٌ للابانة عن الاغراض التي في النفوس .» (ص ١١٧) أو «تصوير ما في النفس ، وتشكيل مافي القلب» وهذا التصوير والتشكيل «قد يقعُ بالاشارة ، ويحصل بالدلالة والأمارة ، كما يحصل بالنطق الصريح ، والقول الفصيح ـ فللاشارات أيضاً مراتب ، وللسان منازل ، وربَّ وصفٍ يُصوِّر لك الموصوف كما هو على جهته لا خُلْفَ فيه ، وربَّ وصفٍ يزيدُ عليه ويتمدّاه ، وربَّ وصفٍ يقصر عنه .» (ص ٢٤٤) .

ومن هنا نجد الباقلاني ، ايضاً ، يوافق الذين شبّهوا الخطّ والنطق بالتصوير . (وأجمعوا أنّ من أحذق المصوّرين ، من صوّر لكَ الباكيَ المُتضاحِكَ ، والباكي الحزين ، والضاحكَ المُتباكي ، والضاحك المستبشر ، وكما أنه يحتاج الى لُطْفِ يد في تصوير هذه الأمثلة ، فكذلك يحتاج الى لُطْفٍ في اللسان والطبع في تصوير مافي النَّفْس للغير .) (ص ١١٩) .

وهذا يعني أنّ الباقلاني شأن الجاحظ وابن سينا والقرطاجني وغيرهم ، يرى أنّ الشِعْر نَزْع ذاتي لتخييل وتصوير ما في النَّفْس ، أو النفوس من المنازع والمشاعر والاغراض «التي لايمكن التوصّل اليها بانفسها . وهي محتاجة الى ما يُميِّزُ عنها ، فما كان أقرب في تصويرها ، وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها ، وكان مع ذلك أحكم في الابانة عن المراد ، وأشدّ تحقيقاً في الايضاح عن المَطْلب ، وأعجب في وضعه ، وأرشق في تصرُّفه ، وأبرع في نظمه ـ كان أولى وأحقّ بان يكون شريفاً .» (ص ١١٩) مُميّزاً بين مصطلحين ، هما :

البراعة : وتعني :[3] الحذْق بطريقة الكلام وتجويده» والفصاحة ، وتعني : «الاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس ، على عبارات جليّة ، ومعانٍ نقيّة بهيّة» (ص ١٢٧)

خامساً : ومن قواعد الشعريّة ، كعلم لفهم الشعر ونقده ، عند الباقلاني ، أنّ الشعر لايجوز أن يوازن بغيره من أساليب الكلام ـ القرآن مثلاً (ص ٢١٥) لانه قد تتفق صورة الشعر في القرآن ، وإن لم يكن له حُكم الشعر (ص ٢٨٥) . وإنما يوازن بالشعر نفسه من جهة ، وبما يُقابله من الشعر في الزمان والمكان من جهة ثانية : (وإنما يوازن شعر البحتري بشعر شاعرٍ من طبقته ، ومن أهل عصره ، ومَنْ هو في مضماره أو في منزلته) (ص ٢٤٣) وهكذا أبو نواس ، مثلاً ، «إنما يُقابَلُ شِعْرُه بشعر أشكاله ، ويُقابَلُ كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره ، وإنما يقع بينهم التباين اليسير ، والتفاوت القليل) (ص ٢١٦) . وذلك لتشابك وتشاكل الفروع والاصول ، واشتباه الطُرق ، وتماثل الصور ، وتقارب السُبُل ـ الى غير ذلك مما يفترضه عنصرا الزمان والمكان ، وإطار الثقافة والوعي الفني ـ الخ . مما يجعل (من الفَضْل بين أهل الزمان اذا تفاضلوا في شيءٍ ، وتفاوتوا في مضمار ، فَضْل قريب ، وأمر يسير) ولكنّ ، مع ذلك ، ورغم أنّ العلماء بالشعر أعز من الكبريت الاحمر (ص ٢٠٣) فانّ المتقدم في هذه الصنعة (القارىء الذكي والناقد البصير ، لاتخفى عليه وجوه الاختلاف مهما كانت يسيرة ، فهو يستطيع أنْ يُميز نسْج أبي نواس ، من نسْج مسلم بن الوليد ، ونسْج ابن الرومي من نسْج البحتري . ومعرفة سارق الالفاظ أو المعاني من مخترعها .. ومَنْ يُجاهر بالاخذ ممن يكاتم به ومَنْ يخترع الكلام إختراعاً ، ويَنْتَحِلُهُ إبتداءاً ، ممن يُرْوَى فيه ، ويُجيل الفكر في تنقيحه ، ويصبر عليه حتى يتخلّص له مايريد .. (ص ١٢٢) «فلكلّ شيء طريق يتوصل إليه به ، وباب يؤخذ نحوه فيه ، ووجه يؤتى منه .»(ص ٢٤٤) .

سادساً : حين يؤكد الباقلاني على ضرورة وحدة الوزن والقافية والرويّ في القصيدة لتحقيق الشعر . (فما كان على وزنين ، إلّا أنه يختلف وزنهما أو قافيتهما فليس بشعر) (ص ٥٤) فانه يؤكد على مبدأ بات معروفاً اليوم ، هو التوازي . والوزن ، حسب ياكوبسن ، هو بالضبط الذي يفرض بنية التوازي[5] والخصيصة النوعية للغة الشعرية هي ، بداهة ، خطاطتها العروضية ، أي شكلها كـ (شعر)[6] . ولن يتحقق هذا ، بدوره ، إلا إذا وقع من قاصد إليه . لان الكلام المُتْزن قد يقع في كلام المنثور إتفاقا غير مقصود إليه . ثم أنّ بنية التوازي في النثر ، على العكس من الشعر ، تنظمها الوحدات الدلالية .

ثمّ كما كان جوهر التقنية الفنيه الخاصه بالشعر ، يعتمد فيما يعتمد ، التكرار : تكرار البيت ، والاجزاء العروضية ، والبُنى التطريزية ، والوحدة النغمية ، وعلامات مكانية ، والتدرج أو التسلسل العمودي للابيات ..الخ[7] . فان هذه لايمكن أن تظهر إلّا إذا كان الشِعْرُ أكثر من بيتٍ . ولهذا قالوا : (إنّ البيت الواحد وما كان على وزنه لايكون شعراً . وأقلّ الشعر بيتان فصاعداً ..) (وقيل : إنّ أقلّ مايكون منه شعراً اربعة أبيات . بعد أن تتّفق قوافيها ..) (ص ٥٣-٥٥) . لان إختلاف القوافي أو الرويّ ، وعدم التعادل والتساوي في الاجزاء ، يُخرج الكلام أن يكون شعراً . (وأما الكلام الموزون فانّ فائدته تتمّ بوزنه) (ص ٥٦) . ذاك أن الوزن من حيث أنه يُبَنْيِنُ الشعر ، بَصَرِيّاً ، يضبط وحداته الصوتية ، شأن السجع : (اذا تفاوتت أوزانه . وإختلفت طُرقه ، كان قبيحاً من الكلام) (ص ٥٩) أي إذا خرج السجع عن إعتدال الاجزاء ، فكان بعض مصاريعه كلمتين وبعضها أربع كلمات ... (ص ٦٤) خصوصاً وأنّ السجع ـ كما يقال ـ كان مبدأ الشعر الذي تطوّر عنه الى الرجز فالقصيد .

---

(٥) ياكوبسن : (قضايا الشعرية) ترجمة محمد الولي ومبارك حنون ـ دار توبقال ـ الدار البيضاء ـ المغرب ١٩٨٨/ص١٠٨

(٦) ياكوبسن : نصوص الشكلانيين الروس . ترجمة ابراهيم الخطيب ـ ص ٨١

(٧) ياكوبسن : قضايا الشعرية ، ص ١٠٨ وتودوروف : (الشعرية) ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة . دار توبقال ـ الدار البيضاء المغرب ١٩٨٧/ص ٦٤ ـ ٦٥